من بلاغة الحوار القرآني

في

سورة هود عليه السلام

إعداد الدكتور

محمد محمد الطاهر محمد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

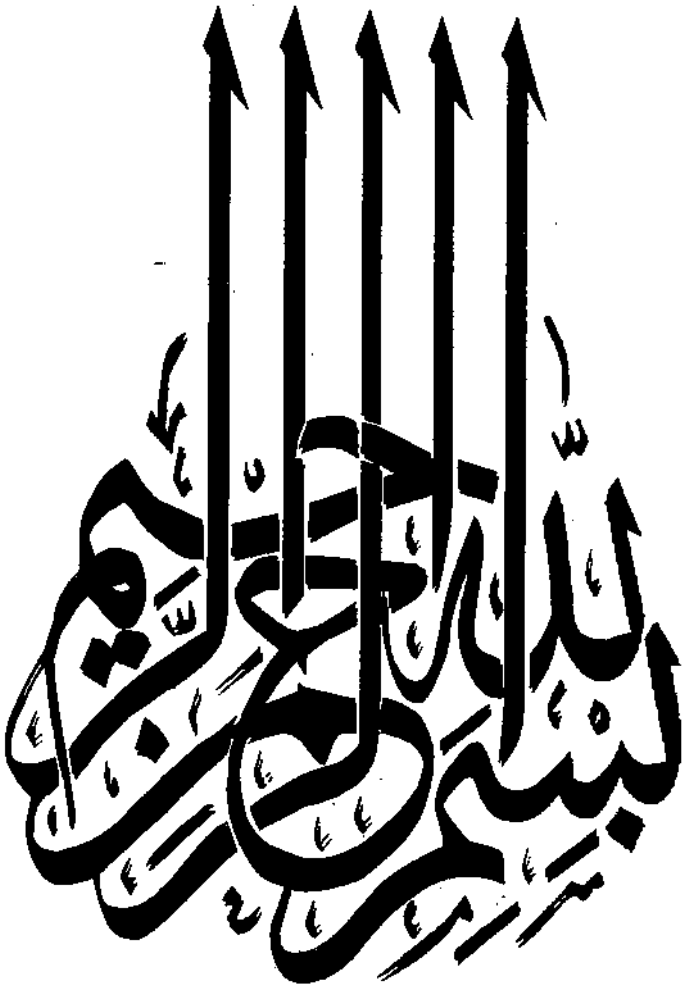
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.[1] آمين.

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلي آله وصحبه أجمعين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين.

وبعد:-

فإن القرآن العظيم كتاب هداية ومنهج حياة، وهو المعجزة الخالدة، والدستور السماوي، أحسن الكتب نظاماً، وأفصحها كلاما، وأعلاها نطقا، وأشرفها غاية، وأبلغها دلالة، وأحكمها بياناً، جعله الله - عز وجل - بشري ورحمة للمؤمنين، وزجراً ووعيداً للعاصين.

إنه كلام الله تعالي، لا تمل الأذن سماعه، ولا يدانيه كلام، وهو معجز بكل ما فيه، من ألفاظ ومعان، لا تنقضي عجائبه، اعترف بإعجازه

---

[1] سورة الفاتحة.

الإنس، وأقرَّ بذلك الجن حيث قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾.[1]

والمتأمل في كتاب الله تعالى، يجده مليئا بالأسرار والمعجزات، لذا فقد كان القرآن العظيم، وسيظل دائما منبعاً خصبا للدراسات المتنوعة، وحافزاً للباحثين على اختلاف تخصصاتهم للوقوف على أسرار، وفيضا يغرف الباحثون منه، كل في تخصصه، فتنوعت لذلك الدراسات التي قامت على الكتاب العزيز، وعكف الدارسون في تأمل كل ما حواه من وجوه الإعجاز.

وتعد الدراسات البلاغية من أهم تلك الدراسات التي اتخذت من القرآن الكريم منهجا تنهل منه، فتناولت تلك البحوث وجوها شتي من البلاغة القرآنية، وما اشتمل عليه القرآن الكريم من فنون بلاغية جاءت في أرقي صورة وأبلغ بيان.

وهذا البحث أتناول فيه نموذجاً من الحوار في القرآن الكريم، وهو حوار نبي الله شعيب – عليه السلام – مع قومه، تلك المحاورة التي وردت في سورة "هود" – عليه السلام–، في آيات متتالية مترابطة، سيقت بأسلوب مشوق، وبلاغة سامية، وكلام مميز يسترعي الانتباه، ويلفت الأنظار، ويترك للعقول المجال الواسع لاستنباط العبر والعظات.

---

[1] سورة الجن آية "١، ٢".

وهذه المحاورة كعادة القرآن الكريم في حواراته تجدها تدور حول الإيمان بالله، واليوم الآخر، والإصلاح، فقد استخدم سيدنا شعيب – عليه السلام – هذه المحاورة في الدعوة إلي الإيمان بالله تعالي، واتخذ من ذلك منطلقا لإصلاح قومه، وما هم عليه،وحثهم على ضرورة الالتزام بالمنهج الرباني في الحياة، ففى ذلك صلاح أمرهم في دنياهم وأخراهم.

وقد وجدت في هذه المحاورة بلاغة راقية، وأسلوبا فخما، وحجة ساطعة، وبرهانا واضحا، وفنونا بلاغية مختلفة، وقفت عندها أتأمل ما حوته من بلاغة القول، وفصاحة المنطق.

كل ذلك وغيره كان دافعاً لي وحافزاً على هذه الدراسة، والوقوف على ما حوته هذه الآيات الشريفة من بلاغة جمة معجزة، وهو موضوع جديد لم يتناوله أحد استقلالاً – حسب علمي – من قبل.

وقد ورد في كتب التفسير تناول تلك الآيات في مكانها، وكثيراً ما كان هذا التناول موجزاً من حيث الدراسة البلاغية، ولذا فقد عزمت – بحول الله وقوته – على تناول هذا الموضوع بصورة مستقلة، ودراسة بلاغية تحليلية مفصلة، والله من وراء القصد.

وهذا البحث يشتمل على مقدمة، وتمهيد، ثم تحليل للآيات الشريفة تحليلاً بلاغيا مفصلاً، ثم الخاتمة، ومراجع البحث، وفهرس الموضوعات.

ففي المقدمة تناولت أهمية ما حوته هذه المحاورة من بلاغة وبيان، وما جاء فيها من أسلوب راق، وتعبير سام، ومواعظ وعبر، وذكرت أهم الدوافع وراء تناول هذا الموضوع.

وفي التمهيد أتحدث عن مفهوم الحوار وأهميته للمجتمع الإنساني، واحتياج البشر إلي الحوار بين أفراده، لأن الحوار طريق مهم من طرق التفاهم يؤدي إلي الترابط وجلاء الحقيقة، كما أتحدث في لمحة عن الحوار القرآني، وهدفه الأسمى، والمبادئ التى أرساها القرآن الكريم للحوار.

ثم أقوم – بحول الله وقوته – بشرح بلاغي دقيق للآيات الشريفة وما حوته من روعة البيان، وفنون البلاغة، وبراعة الأسلوب، ودقة التعبير، وشرف الألفاظ، حيث جاءت تلك الآيات الشريفة وصيغت بأسلوب مؤثر، يمزج بين الخبر والإنشاء، والفصل والوصل، والأمر والنهي، والوعد والوعيد ... إلخ.

فكان لهذا كله وغيره أثر جم فى نفس المتلقى، الأمر الذى مكن لها في القلوب، وجعل لها التأثير في النفوس، خاصة بعد معرفة خاتمة تلك المحاورة، وما جناه قوم شعيب – عليه السلام – من خسران وهلاك نظير عنادهم وطغيانهم، ثم تأتى الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث.

وأخيراً المصادر، وفهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يكتب لي القبول، وأن يجعل في هذا البحث التوفيق والسداد والنجاح، إنه سبحانه سميع الدعاء.

التمهيد

إن القرآن العظيم جامع لكل أنواع الإعجاز- والحوار القرآني جزء مهم من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم.

"ومعني الحوار أو المحاورة: مراجعة الكلام، وتبادل الآراء للوصول إلي الحقيقة"(١).

يقول ابن منظور: "الحَوْر: الرجوع عن الشيء وإلي الشيء، حار إلي الشيء وعنه حوراً ومحاراً ومحارة، ومنه "الحوار" الذي هو الرجوع"(٢).

"ويعود بنا الحوار إلي مادة "حور"، وبالمتابعة للمادة نجد أن المعني الغالب عليها هو الحركة بين الشيئين والرجوع والنقص، ولعله قد اتضح من كل دوران المادة أن اللين والرقة لوحظت في شيء منها، ويمكن القول بأن الحوار قد يلين فتراه روحاً رقيقاً، وقد ينشط فتري فيه حركة الريح والرحى"(٣).

ويعد الحوار سمة من سمات الرقي الإنساني، لأن سماع الرأي المعارض من أهم أسس الحوار البناء الهادف؛ فإن الإساءة، ومصادرة الرأي الآخر تفسد الحوار، وتجعله لا قيمة له، ذلك لأن تفنيد الحجة،

---

(١) الحوار والجدل في القرآن الكريم د/ خلف الحسيني: ص ١٤.

(٢) ينظر لسان العرب مادة "حور".

(٣) أسلوب الحوار في القرآن الكريم د/ محمد لطفي حويل: ص ٤٨.

وإبراز زيف وبطلان كلام الخصم دون مصادرة لرأيه لها ما لها من نجاح الحوار وإفادته.

"والحوار القرآني هو المثال الفريد والمثل الأعلى للحوار البناء الهادف، الذي يمتع الوجدان، ويغذي المشاعر، ويخصب الفكر، ويعمق الخيال، ويحيي النفس، ويجدد ويعلي الاتجاه الروحي، وهو الدليل الحاسم الذي أكد ويؤكد أن لغتنا العربية قادرة على احتضان الحوار القصصي في الصورة الفريدة، والمثل المعجز، وهو الحوار الذي سيبقي خالداً شامخاً يعلو ويسمو فوق كل عيار"(١).

نعم:- فإن القرآن العظيم قد رسم عن طريق الحوار دعائم قيمة، وذكر شخصيات مثالية في الرقي الإنساني للاقتداء بهؤلاء، كما نفر من خلال الحوار من صفات قبيحة مذمومة للبعد عنها.

فالهدف الأسمى من الحوار القرآني هو الهداية، ورسم الطريق المستقيم، وإصلاح حال البشر، وهو إذ يقدم لنا نموذجاً مثل شخصية سيدنا شعيب - عليه السلام - فهو إنما يضرب المثل على الصبر والمثابرة، ويقدم المنهج السوي، وحرص النبي - عليه السلام - على هداية قومه والنصح لهم، ويظهر مدي الصدق في القول، والرقة، والاستمالة في الحوار.

يقول الدكتور سيد طنطاوي - رحمه الله -: "وإذا تأملت الحوار القرآني تجده قد استعمل في إثباته للحق الذي أمر الخالق - عز وجل -

---

(١) أسلوب الحوار في القرآن الكريم: ص٤٧.

بإتباعه، أحكم الأساليب، وأنصع الأدلة، وأقوي البراهين التي تقنع العقول السليمة، والعواطف الشريفة، والقلوب الطاهرة التي تقذف بحقها على الباطل فإذا هو زاهق، والتي تجعل المؤمنين يزدادون إيماناً على إيمانهم، وثباتا على ثباتهم.(١)

وما أحوج المجتمعات الإنسانية في هذه الأيام إلي تلك المحاورات القيمة الهادفة، التي هي من أرقي وأسمي مظاهر الحضارات.

وقد وردت كلمة "الحوار" ومشتقاتها في القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالي ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ (٢) أي مراجعتما الكلام، وقوله تعالي: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ .... قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ (٣)، والمعني: رد كل منهما على صاحبه.

وأيضاً قوله تعالي: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ (٤) أي لن يرجع.

ويلحظ أن أسلوب الحوار في القرآن الكريم أسلوب مميز، يسترعي الانتباه، ويلفت الأنظار، ويترك للعقول المجال الواسع لاستنباط العبر والعظات من تلك المحاورات العديدة التي حفل بها القرآن الكريم.

---

(١) أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي: ص٢.

(٢) سورة المجادلة آية "٢".

(٣) سورة الكهف الآيات "٣٤: ٣٧".

(٤) سورة الانشقاق الآية "١٤".

وقد كانت تلك الحوارات بين أطراف مختلفة، كلها تعطي دروساً كثيرة وجمة، فتجد بعض تلك المحاورات كان أحد طرفها الحق سبحانه وتعالى مثل محاورته – جل جلاله – للملائكة، وإبليس، وبعض تلك المحاورات جرت بين الرسل – عليهم السلام – مع أقوامهم، ومن المحاورات من كان طرفيها المؤمنين مع الطغاة والظالمين، وأيضاً هناك محاورات بين الطغاة وأتباعهم.

وقد أرسي القرآن العظيم مبادئ الحوار، الذي يقوم على العقل كوسيلة للتعامل مع المخالفين، ولذا تجد الحوار القرآني يتميز بأسلوب راق يعد من أنجح الأساليب وأمثلها للتعامل مع المخالفين، وجاء في أبهي صورة، وأرقي بيان.

والقرآن الكريم جعل كل قضاياه سبيلها الحوار، ولا يجعل من القوة سبيلاً إلي التعامل مع المخالفين، وإنما هي عقوبة للمعاندين الذين يصرون على الباطل رغم سطوع نور الحق.

لذا فإن الحوار هو البديل الطبيعي المقبول للهمجية والعنف.

إن منهج القرآن الكريم يعتمد على إلزام الخصم والتغلب عليه عن طريق إقامة الحجة، والدليل الواضح، والبرهان الساطع، وهو من أسمي مناهج الحوار، وكثيرا ما تجد الحوار القرآني يختتم بتعقيب يبرز الهدف، ويظهر العبرة.

وهذا البحث – محل تلك الدراسة – يقوم على محاورة مهمة، تعد نموذجا قيما من الحوارات القرآنية، هي تلك المحاورة التي دارت بين

نبي الله شعيب – عليه السلام – مع قومه، والتي حكاها القرآن العظيم في سورة هود – عليه السلام – "من الآية ٨٤ إلي الآية ٩٥"، وتبدأ بقوله تعالي ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ....﴾ [١]، وتنتهي بقوله تعالي: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.[٢]

وقد حفلت هذه المحاورة بألوان البيان المختلفة، وجاء كل ذلك بصورة تلائم الموضوع، وتلمس فيها مراعاة مقتضي الحال، وملائمة السياق، وتميزت بالوضوح، وعرض المعاني والقيم الأخلاقية، والربط بين الدين كعقيدة سليمة وبين السلوك البشري كمظهر لتلك العقيدة، وتجد في تلك المحاورة إظهار شرف الانتماء إلي الحق، والصبر والتحمل في سبيل ذلك.

ويلحظ في تلك المحاورة أيضاً أنها بدأت بتمهيد للمحاورة، وحسن الربط بين التمهيد والغرض، وبيان الحاجة المطلوبة، وحسن التعليل، مع إظهار العبرة والعظة في النهاية.

كما أن تلك المحاورة دارت حول توحيد الله – عز وجل – وإفراده بالعبادة، واتخذت من الإصلاح هدفاً ساميا تسعي إليه، وكل ذلك جاء في أبهي صورة، وابلغ بيان.

---

[١] سورة هو – عليه السلام – الآية "٨٤".

[٢] سورة هود – عليه السلام – الآية "٩٥".

وهذا وغيره مما اشتملت عليه تلك المحاورة القرآنيــة العظيمــة، وساقتها تلك الآيات الشريفة سأقف عند كل ذلك - بــإذن الله تعــالي - موضحا وشارحا ومفصلاً ما اشتملت عليه من فنــون بلاغيــة راقيــة، وصلت بها إلى حد الإعجاز، وجعلت لها القبول والاستحسان.

التحليل البلاغي للآيات الشريفة

قال الله تعالي:- بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ۖ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾.[1]

صدق الله العظيم

[1] سورة هود عليه السلام الآيات "٨٤: ٩٥".

هذه الآيات الشريفة تحكي لنا حواراً دار بين نبي الله شعيب وبين قومه، وكان قومه قطاعاً للطرق، يقطعون الطريق، ويأخذون الربا، ويطففون الكيل والميزان، مع أن الله عز وجل قد أنعم عليهم، حيث كانوا قلة فكثرهم، وهم في خير ونعمة فليسوا في حاجة إلي هذا الفعل الشنيع، فأرسل الله تعالي إليهم شعيبا - عليه السلام - ليعظهم ويوجههم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم.

وقد اختلف المؤرخون في نسب نبي الله شعيب - عليه السلام - فهو شعيب بن توبة عند بعضهم، وشعيب بن أيوب، وشعيب ابن ميكيل، أرسله الله تعالي إلي أهل "مدين"، وكانوا عربًا يقيمون في بلاد الشام.

وكان أهل "مدين" يعتمدون على التجارة مصدراً لرزقهم، ولكنهم لم يراعوا حق الله تعالي فيها، فكانوا لا يوفون الكيل والميزان، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم، ويقطعون الطريق على المارة، فأرسل الله تعالي نبيه شعيبا - عليه السلام - إليهم يدعوهم إلي عبادة الله تعالي، فتلطف لهم بالقول، وحاورهم بالقول الجميل، وجعل "الإصلاح" هدفا لدعوته.

وشعيب - عليه السلام - هو خطيب الأنبياء - عليهم السلام - تميز كلامه بالحكمة، والإقناع، وقوة الدليل، ورقي الألفاظ، والحوار الحسن، وهو ما يظهر في تلك المحاورة.

يقول الله تعالي:- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾.

هذه هي بداية تلك القصة، وهذه المحاورة، وجرت العادة أن تبدأ كل قصة من قصص هذه السورة الكريمة سورة "هود" - عليه السلام - بهذه الجملة، وقصة شعيب مع قومه هي القصة السادسة التي تحكيها هذه السورة الشريفة.

والمعني: أرسلنا إلي مدين أخاهم شعيبا، وكان شعيب أخاهم في النسب، "وسموا مدين باسم أبيهم، وهو مدين بن إبراهيم، وقيل: باسم مدينتهم، و"مدين" لا ينصرف لأنه اسم مدينة".(١)

والجملة معطوفة على قوله تعالي ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا....﴾ ويلحظ في القرآن الكريم أن الله تعالي عندما ذكر تكذيب أصحاب الأيكة - وهو شجر كان يعبد من دون الله - لم يذكر في القرآن لفظ "الأخ"، يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾(٢)، فهو هنا ليس أخاهم في

(١) فتح القدير ٢/٥١٨.

(٢) سورة الشعراء الآية "١٧٦'١٧٧.

التكذيب، لذا لم نجد لفظ أخيهم، وأيضاً لأن شعيبا – عليه السلام – لم يكن أخًا لأصحاب الأيكة في النسب، فلما ذكر "مدين" قال "أخاهم شعيبا" لأنه كان منهم، فالله تعالي أرسل شعيبا – عليه السلام – إلي قوله "أهل مدين"، وإلي أهل البادية، وهم أصحاب الأيكة.

قوله: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ﴾ استئناف بياني، فكأن قائلاً قال: ماذا قال لهم؟ فقيل: "قال ...." (١)، والمعني: قال مثل ما قاله إخوانه من الأنبياء لقومهم.

قوله تعالي حكاية ﴿يَٰقَوۡمِ ﴾ يفيد أن شعيبا – عليه السلام – قد تلطف لهم في القول، واستعطفهم مظهرًا غاية الشفقة، فهو ينادي قومه وأهله وعشيرته، وفي هذا ما فيه من الاستمالة لهم والترغيب في قبول نصحه وإرشاده، لأن المرء لا يريد لقومه إلا الخير، ولا يرجو لأتباعه إلا المنفعة.

قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ بصيغة الأمر، لأن هذا أصل الدين، لذا فقد بدأ به، وهو على سبيل النصح والإرشاد.

قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ ﴾.

---

(١) وفي الآية شبه كمال الاتصال، وهو أن تكون الجملة جوابًا عن سؤال مقدر يفهم من الأول فيفصل بينها وبين سابقتها كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من قوة الارتباط.

"من": جئ بها لقصد الاستغراق في النفي، وكان قومه يتخذون آلهة من دون الله، يقدسونها ويعبدونها، فدعاهم إلي عبادة الله تعالي وحده، وفي العبارة تعليل للأمر.

ثم عطف على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾

هذا أسلوب نهي؛ لأن قومه كانوا مع كفرهم أهل تطفيف، يبخسون الناس أشياءهم، والواو: عاطفة، و "لا" ناهية، والفعل المضارع بعدها مجزوم وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: فاعل، والمكيال: مفعول به، و "الميزان": معطوف على المكيال.

يقول البقاعي – رحمه الله –: "ولما دعا إلي العدل فيما بينهم وبين الله، دعاهم إلي العدل فيما بينهم وبين عبيده في أقبح ما كانوا قد اتخذوه بعد الشرك ديدنا، والكيل: للعدل في الكمية، و"الوزن": للعدل في الكيفية، فالمراد بالكيل: هو تعديل الشيء بالآلة في القلة والكثرة، والمراد بالوزن: تعديل في الخفة والثقل".(١)

وقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾: المراد: أنتم في سعة رزق وغير محتاجين لهذا التطفيف والبخس، فكأن هذا القول علة تقتضي الوفاء لا النقص، وتوجب الشكر لا الكفر، فالجملة تعليلية للنهي، فكان المفترض أن يكونوا أصحاب فضل وتسامح، يقول الطاهر بن عاشور –

(١) نظم الدرر ٩/٣٥١.

رحمه الله – "إنما ذكر رؤيته ذلك في قوله: "إني أراكم بخير ...."؛ لأنها في معنى الشهادة عليهم بنعمة الله تعالى عليهم، فحق عليهم شكرها، وفي الكلام حث على الحفاظ على النعمة".(١)

والخير: حسن الحال ، والباء في "بخير" للملابسة، ثم ذكر بعد هذه العلة علة أخرى فقال: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

فهو ينكرهم بعذاب الآخرة، فهذا من قبيل الجمع بين الترغيب في العلة الأولي، والترهيب" المستفاد من العلة الثانية.

يقول الزمخشري – رحمه الله –: "يوم محيط": أي مهلك، من قوله: "وأحيط بثمره"، وأصله من إحاطة العدو، فإن قلت: وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها، قلت: بل وصف اليوم بها؛ لأن اليوم زمان يشتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه، كما إذا أحاط بنعيمه".(٢)

ويلحظ الإسناد المجازي في وصف اليوم بالإحاطة بالعذاب، وفيه من المبالغة التهويل ما لا يخفى، ومحيط صفة لـ"يوم" يفيد الإحاطة والشمول، فكأن عذاب هذا اليوم يأتي عليهم جميعاً بلا استثناء، فهو

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ١٣/١٤٢.

(٢) الكشاف ٣/٥٠.

وصف اليوم على جهة المجاز العقلي(١)، وقرينة هذا المجاز هي إضافة العذاب إليه.

والمجاز يكمن فى تضمن الوصف ضميرًا مستترًا يعود إلى اليوم، أى يوم محيط.

والمجاز العقلى ليس فى وصف اليوم بأنه محيط، وإنما فى إسناد محيط إلى ضمير اليوم، لأن المجاز العقلى يكون فى الإسناد وليس فى الوصف كما هو معلوم.

قوله تعالي: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾.

تأمل إعادة النداء في ﴿ وَيَٰقَوْمِ ﴾ وذلك دليل على الاهتمام بالجملة، والتنبيه على مضمونها، وهو الأمر بإيفاء المكيال والميزان.

والآية تأكيد للنهي عن نقص الكيل والميزان.

---

(١) المجاز العقلي: هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأول لإفادة للخلاف لا بواسطة وضع. ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٠٨، وبغية الإيضاح ١/٨٠، وقد عرفه الخطيب القزويني بقوله: "المجاز العقلي: هو إسناد الفعل أو ما في معناه إلي ملابس له غير ما هو له بتأول" ينظر الإيضاح لتلخيص المفتاح.

وقوله: "بالقسط" أي بالعدل، وهو حال، أي عادلين، والباء للملابسة، وهو متعلق بقوله: "أوفوا"، وقوله: ﴿أَوۡفُواْ﴾: أي أتموا، وفي الكلام تأكيد للمعني في الآية السابقة؛ لأن النهي عن النقص يستلزم الإيفاء، وفي هذا ما فيه من التأكيد على المعني المراد وأهميته، ولذا قال الزمخشري: "نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان؛ لأن في التصريح بالقبيح نعيا على المنهي، وتعييراً له، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذي هو حسن في العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه".(١)

نعم: فإن التصريح بالأمر بالشيء بعد النهي عن ضده فيه توكيد للمعني. وحرص عليه، وإظهار لعموم نفعه.

فقد عيرهم أولاً بالتصريح بالنهي عما هم عليه من رزيلة نقص المكيال والميزان، ثم أمرهم ثانياً بإيفائهما بالعدل، ترغيباً في ذلك.

قوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

البخس: هو النقص، "وذكر ذلك بعد النهي عن نقص المكيال والميزان تذييل بالتعميم بعد التخصص، والفعل "تبخسوا" تعدي لمفعولين، باعتباره ضد "أعطي"، فهو من باب كسا".(٢)

---

(١) الكشاف ٣/٥٠.

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٤٢.

والمعني: أن قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا...﴾ هو نهي عند البخس عاما فيشمل النقص في المكيال والميزان وغيره، ولذا فهو من باب ذكر العام بعد الخاص.

ونلحظ أن في معني البخس إهانةً وجحدًا ونكرانًا، لأن من معاني "البخس" النقص والمكس والهضم.

قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

العثي: هو الفساد، وأكده بقوله: "مفسدين" فهو حال مؤكدة لعاملها، ولفظ "في الأرض" عام، فالمقصود منه تعميم النهي عن الفساد في كل مكان، فيشمل النهي عن السرقة، والإغارة، وقطع الطريق، والتطفيف الذي هم متلبسون به، وغير ذلك من جميع وجوه الفساد.

وفي البحر المحيط: "بدأ هم أولا بالنهي عن المعصية الشنيعة التي كانوا عليها بعد الأمر بعبادة الله، ثم ارتقي إلي عام، ثم إلي أعم منه وذلك مبالغة في النصح لهم، ولطف في استدراجهم إلي طاعة الله".(١)

ويقول أبو السعود – رحمه الله –: "وفائدة الحال "مفسدين" إخراج ما يقصد به الإصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام".(٢)

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: ١٩٦/٦.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٣٢/٣.

يقول الثعالبي: "عثي: العين والثاء والحرف المعتل كلمة تدل على فساد، يقال: عثي يعثو، ويقال: عَثِيَ يَعْثَي، مثل عاث".(١)

وفي لسان العرب: "عثا عثوا": أفسدوا أشد الإفساد، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ، كلهم قرؤوا ﴿وَلَا تَعْثَوْا﴾ بفتح الثاء، من عَثِيَ يَعْثَي عَثْوا، وهو أشد الفساد".(٢)

فنبي الله شعيب – عليه السلام – دعا قومه إلي الوحدانية، وبجانب ذلك أراد أن يغير أسلوب حياتهم، وقصد نصحهم وإرشادهم إلي ترك ما هم عليه من غي وسفه، وعادات ذميمة كقطع الطريق، والتطفيف في المكيال والميزان.

نعم: إن الدعوة إلي العقيدة السليمة ارتبطت بها دعوة أخري وهي قضية الأمانة والعدالة في التعامل مع الناس، وتأمل ما أفاده لفظ "أشياءهم"، فإن لفظ "الشيء" يدل على العموم، فيدخل في ذلك المحسوس والمعقول مثل تقويم الأشخاص ماديا ومعنوياً، والكيل والميزان والمشاعر والأحاسيس..... الخ.

وقضية التطفيف في المكيال والميزان قضية عظيمة، اهتم القرآن الكريم بها اهتمامَ كبيراً، وذكرها في أكثر من موضع في الكتاب العزيز، بل سميت سورة بهذا الاسم هي سورة "المطففين"، بدأ لها الله تعالي

---

(١) ينظر مقاييس اللغة مادة "عثي".

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة "عثا".

بقوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.(١)

يقول الشيخ سيد قطب – رحمه الله –: "والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس، وغش وخيانة في التعامل، تتزعزع بهما الثقة، ويتبعها الكساد، وتقل بهما البركة في محيط الجماعة، فيرتد هذا على الأفراد، وهم يحسون أنهم كاسبون بالتطفيف، وهو كسب ظاهري ووقتي؛ لأن الكساد في الجماعة يعود على الأفراد بعد حين".(٢)

ففي الوصية بإيفاء الكيل والميزان إرشاد إلى ما ينفع الفرد والمجتمع، كما نصت الآيات في القرآن الكريم على الوعيد للمطففين؛ لأن أمر الكيل والميزان أمر عام شائع دائم يحتاج إليه الناس كافة، فلا غني عنه لأحد؛ لذا بالغ الشارع الحكيم في المنع من التطفيف والنقصان.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

إن كلمة "بقيت الله" تفيد أن ما أبقاه الله من الحلال بعد التخلص من الربا والتطفيف وغير ذلك هو خير من الحرام الذي يقومون به، من البخس والتطفيف، وقطع الطرق.

---

(١) سورة المطففين الآية "١: ٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢٢٢٧/١٤.

يقول البقاعي – رحمه الله –: "ولما كان نظرهم بعد الشرك مقصوراً على الأموال، وكان نهيه عما نهي عنه موجباً لمحقها في زعمهم، كانوا كأنهم قالوا: إنا إذا اتبعناك فيما قلت فنيت أموالنا أو قلت فتضعضعت أحوالنا، فلا يبقى لنا شيء، فقال "بقيت الله ...."(١)

و"بقيت" مبتدأ، وإضافتها إلي لفظ الجلالة إضافة تشريف وتعظيم، فأي بقية تدانيها، وجاء الخبر "خير" كلمة جامعة لمعان في كلام العرب، وتدل على الدوام.

ومعروف أن حرمة الأموال مقررة في الشرع، وقد خصها النبي الكريم – صلي الله عليه وسلم – في حجة الوداع، وقرنها بالدماء فقال: "أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا...."(٢)

وتأمل جملة الشرط: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ، وما يفيده من أن البقية لا تكون خيراً إلا للمؤمنين.

و "إن" شرطية، و "كنتم" فعل الشرط، ومؤمنين: خبر كنتم، والجواب محذوف أي: فبقية الله خير.

وذكر شرط الإيمان هنا فيه ما فيه من تعظيم لشأنه، وتنبيه على علو قدره، وأنه شرط في قبول العمل الصالح.

---

(١) نظم الدرر ٩/٣٤٥.

(٢) ينظر خطبة الوداع في صحيح مسلم .

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله –: "واسم الفاعل "مؤمنين" جئ به وهو حقيقة في الاتصاف بالفعل في زمان الحال تقريباً لإيمانهم بإظهار الحرص على حصوله في الحال، واستعجالاً بإيمانهم، لئلا يفجأهم العذاب فيفوت التدارك".(١)

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٍ﴾.

هذا يدل على حسن محاورة شعيب – عليه السلام – خطيب الأنبياء – عليهم السلام – وهو كلام مشعر بالترغيب وحسن الجدال، فهو يقول لهم: افعلوا ذلك بمحض اختياركم، وغير مجبرين، لأنه في صالحكم.

يقول أبو السعود – رحمه الله –: "لست أنا الذي أحفظكم من القبائح، أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم، وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت إذا أنذرت".(٢)

و"الحفيظ": المجبر ومن معانيها المحصي، والمحاسب، والمراقب، وانظر إلي تقديم "عليكم" وما تشعر به من أنه – عليه السلام – يريد أن يقنعهم أنه ليس مستعليًا عليهم، لأن لفظ "على" يفيد الاستعلاء، فهو ينزع من نفوسهم ما قد يتوهمونه من أن تلك النصائح من باب الاستعلاء عليهم، فالمعنى: إنما بعثت مبلغاً وناصحاً أمينا، ودالاً على الخير.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٢/١٣.

(٢) إرشاد العقل السليم لأبي السعود: ٢٣٢/٣

"والواو في "وما" عاطفة، و"ما" نافية، و"أنا" اسمها، و"عليكم" متعلق بحفيظ، والباء في "بحفيظ" حرف جر زائد، و"حفيظ" مجرور لفظا منصوب محلاً".(١) وهذا التعبير "وما أنا عليكم بحفيظ" يشعر المخاطبين بخطورة الأمر، وأن أمرهم موكل إلي الله تعالي، وفي هذا ما فيه من نقل التبعية من شعيب مع قومه، إلي الله تعالي الواحد القهار.

وانظر إلى تقديم المسند إليه "أنا"، ومجيئه عقب حرب النفي "ما"، وهذا التركيب يفيد الاختصاص، لأنه إذا قدم المسند إليه فولى أداة النفي أفاد الاختصاص، وقد تحدث الإمام عبد القاهر الجرجاني عن هذا التركيب ونص - رحمه الله - على أن ذلك يفيد ثلاثة أمور: نفي الفعل عن المسند إليه المتقدم وإثبات نفس الفعل المنفي ووجود فاعل آخر غير المسند إليه المتقدم قد فعل هذا الفعل.

وهذا على ما قاله بعض البلاغين من أن ذلك ليس قاصراً على الخبر الفعلي بل يتعداه إلي غيره، فإن قولنا: "ما محمد بجاحد نعمة ربه" يفيد الاختصاص تماماً كما يفيده: "ما محمد جحد نعمة ربه".(٢)

ولا نغفل دور السياق في ذلك، فإن له دوراً مهما في تحديد المقصود من التركيب، وأن مدلول الكلام قد يفيد الاختصاص، وقد يفيد التوكيد، وواضح أن الذي معنا في الآية الشريفة أفاد الاختصاص، لأنه ينفي عن نفسه أن يكون رقيباً عليهم، وحسيباً لهم، ويسند ذلك إلى الله

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤/٤١٦.

(٢) البلاغة العربية وتاريخها ص ١٧٧٧، د: بسيوني فيود.

تعالى فهو سبحانه ربه وربهم، خاصة أنه سبق ذكر لفظ الجلالة في صدر الآية الشريفة في قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

بدأت الآية بقوله: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ ...﴾ وفصلت عن الآية السابقة لشبه كمال الاتصال، حيث الاستئناف البياني، فهي إجابة عن سؤال مقدر أثارته الآية السابقة عليها، والتقدير مثلاً: فماذا كان ردهم؟ فقال جوابا عن ذلك: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ ...﴾.

يقول أبو السعود: "أجابوا بذلك أمره – عليه السلام – إياهم بعبادة الله وحده، المتضمن لنهيهم عن عبادة الأصنام، ولقد بالغوا في ذلك، وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال، حيث لم يكتفوا بإنكار الوحي الآمر بذلك، حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واللب أصلاً، وأنه من أحكام الوسوسة والجنون، وعلى ذلك بنوا استفهامهم، وقالوا بطريق الاستهزاء: ﴿أَصَلَوٰتُكَ ...﴾.[1]

---

[1] إرشاد العقل السليم ٣/٢٣٢.

وانظر إلي الاستفهام الإنكاري ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، وما ينطوي تحته من الاستهزاء بشعيب – عليه السلام – وشريعته، التي منها "الصلاة"، وخصوا الصلاة بالذكر لأنه – عليه السلام – كان كثير الصلاة، وكان قومه كلما رأوه يصلي استهزؤا به(١)، وتغامزوا عليه.

فالهمزة في ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ استفهام إنكاري يراد به التوبيخ والتكذيب، ومعلوم أن الأمر المراد إنكاره هو ما يليَ الهمزة، وهو هنا "الصلاة"، وذلك كما سبق لأن الصلاة مظهر ديني تميز واشتهر به "شعيب" – عليه السلام – بينهم؛ لذا كان محلاً للسخرية والاستهزاء من هؤلاء المجرمين.

فالإنكار هنا ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ موجه للصلاة، لأن المراد إنكاره هو ما يلي الهمزة، وهذا من الدقائق التي ذكرها الإمام عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، حيث نبه على أن الشيء المراد إنكاره هو ما يلي الهمزة. (٢)

فلما كان الأمر المنكر، والمراد الاستهزاء به هو "الدين" متمثلاً في "الصلاة"، قدموها للاهتمام، ولأن ذلك هو عين المراد من السخرية

---

(١) نص على ذلك كثير من المفسرين، ينظر الكشاف والتحرير والتنوير وغيرهما.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز، وينظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور/ محمد أبو موسى، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

والاستهزاء، فالمقدم "الصلاة" هو محل الإنكار والتعجب والاستهزاء، وكذلك الاهتمام.

وتأمل الفرق بين قوله ومخاطبته - عليه السلام - لهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ، وتكرار ذلك منه استمالة لقلوبهم، وأدبا في المحاورة، ورقياً في المجادلة وحسنا، تأمل ذلك، ثم تأمل هذا الجفاء منهم، وسوء الخطاب، فقد سموه باسمه ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ غلظة وجفاء واستهزاءً.

والهمزة في ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ للاستفهام، وهو للسخرية والاستهزاء، و"صلاتك" مبتدأ، وجملة "تأمرك" خبر، و"أن نترك" هي أن المصدرية والفعل بعدها مؤول منصوب بنزع الخافض ومتعلقان بقو له: ﴿تَأۡمُرُكَ﴾، والمعني: تأمرك بترك، و"ما" الموصولة مفعول الترك، والفاعل ﴿ءَابَآؤُنَآ﴾.

وإسناد الأمر إلي الصلاة إسناد غير حقيقى، وقد يكون مقصودهم بالصلاة: الدين، وخصوها بالذكر لأنه - عليه السلام - كان مشهوراً بينهم بكثرة الصلاة، فيكون من قبيل المجاز المرسل حيث عبروا عن الجزء "الصلاة"، وأرادوا الكل "الشريعة والدين والمنهج" فهو من قبيل المجاز المرسل علاقته "الجزئية".

فلما دعاهم - عليه السلام - إلي ما دعاهم إليه من الخير وإخلاص العبادة لله تعالي، أخذوا يستهزئون به، فقالوا: أي دين هذا

الذي يتدخل في الكيل والميزان، ولا زال حتى يومنا هذا من يدّعون ذلك، بفصل الدين عن الدنيا، فمن وجهة نظرهم الفاسدة، أن الدين لا دخل لـــه في شئون الحياة.

فلأن قوم شعيب – عليه السلام – من فرط جهلهم وعنادهم أنكروا عليه تدخل الدين في معاملاتهم وأخلاقهم.

وإسناد العبادة إلي الآباء فـــي قـــولهم: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ مفاده أن هذا هو موروثهم وعقيدتهم التي أخذوها من آبائهم، وتوارثتها الأجيال، وذلك كله لإظهار تمسكهم بها، وعدم التنازل عن هذا الموروث العتيد، كما أن التعبير بالمضارع، "يعبد" يشير إلي الاستمرار جـــيلاً بعـــد جيل، ويلحظ أن بعض الآباء قد يكون حيا فهو ما زال يعبد ذلـــك، فهـــم يقلدون آباءهم، وينزهونهم عن الخطأ.

وكما سبق فإن إسناد الأمر إلي الصلاة إسناد مجازي، وأنهم إنمـــا ساقوا ذلك في كلامهم قصدًا للسخرية والتهكم.

وقولـــه تعـــالي: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾، "أو" للعطف أو للتنويع أو للتقسيم، والجملة معطوفة على الجملة قبلها وهـــي "ما يعبد آباؤنا، ويلحظ الطباق بين "نترك، ونفعل"(١) و"ما" موصـــولة، و"نشاء" جملة الصلة.

---

(١) الطباق هو: الجمع بين المتضادين، أي معنيين متقابلين. بغية الإيضاح ٤/٤.

فقد أنكروا عليه أيضاً أمره لهم بإيفاء الكيل والميزان، ونهيه لهم عن البخس، وعدّوا ذلك عبثا وغياً، ففي الكلام تعريض به – عليه السلام – فهم قد سفهوا عقله، ووسموه بركاكة الرأى، ولذا أكدوا ذلك بقولهم: "إنك لأنت الحليم الرشيد".

وانظر أولاً إلى ما اشتمل عليه التركيب من التوكيدات، تجد "إن" وتجد اللام في "لأنت"، وتجد تعريف الطرفين، كل ذلك يوحي بأن حكمهم على سيدنا – شعيب – عليه السلام – كامن في داخلهم، متأكدون منه، غير شاكين في حقيقته.

فالمراد من قولهم هذا هو وسم سيدنا شعيب – عليه السلام – بالطيش والسفه، وذلك على سبيل الاستعارة التهكمية، وقد سماها السكاكي "الاستعارة التلميحية"، وهي استعارة أحد العنصرين، أو النقيضين للآخر، بواسطة انتزاع شبه التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب، بطريق التهكم أو التلميح، ثم ادعاء أحدهما من جنس الآخر.(١)

وقد اهتم علماء البلاغة بهذا النوع من الاستعارة، وهو كثير في القرآن العظيم.(٢)

فالاستعارة التهكمية هي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة.

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي ص١٧٧.

(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ١/٢٣٩، وينظر معجم المصطلحات البلاغية للدكتور/ أحمد عبد المطلب ص٩٥.

فالغرض الحامل على استعمال هذين اللفظين "الحليم الرشيد" هو السخرية والاستهزاء؛ لذا كانت الاستعارة تهكمية، فهم إنما أرادوا وصفة بالسفه والغي.

"وقيل: إنهم قالوا ذلك لا على طريقة الاستهزاء، بل هو عندهم كذلك، وأنكروا عليه الأمر والنهي منه لهم بما يخالف الحلم والرشد في اعتقادهم".(١)

ويظهر أن هذا الرأي الأخير ليس هو مرادهم، بديل الكبر والغطرسة التي وضحت في محاورتهم له.

و"إنك" إن واسمها، و"أنت": مبتدأ والحليم الرشيد خبراه، والجملة خبر "إنك"، والجملة استئناف بياني، و"الحليم": هو ذو الحلم أي العقل، و"الرشيد": هو الحسن التدبير الموصوف بالحكمة وسداد الرأي، وحسن التصرف.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾.

---

(١) فتح القدير ٢/٥١٩.

يواصل سيدنا شعيب – عليه السلام – تلطفه في القول، وتودده في نداء قومه واستمالتهم ويذكرهم بأواصل القرابة بينه وبينهم، فيقول: ﮋ ﯓ ﯔ ﮊ هذا استئناف بياني، وهو شبه كمال الاتصال، وقوله: ﮋ ﯕ ﮊ: بمعني أخبروني، فينصب مفعولين، وقد حذفا معًا، وتقدير الأول "أخبروني" فياء المتكلم هي المفعول الأول، والثاني يقدر غالباً بجملة استفهامية أي: أفأشوب رزقي بالحرام من البخس والتطفيف".(١)

فالمعني: اخبروني إن كنت على حجة واضحة من عند ربي فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه.

"هذه مراجعة لطيفة، واستنزال حسن، واستدعاء رقيق، وهذا النوع يسمي استدراج المخاطب، وهو نوع لطيف غريب المغزى، يتوصل به إلي بلوغ الغرض".(٢)

والبينة: أي البرهان، والحجة الواضحة، والدليل القاطع، وتأمل جملة الشرط "إن كنت"، وما ينطوي تحتها من حسن المحاورة وعدم فرض الرأي، وإنما هو مجرد افتراض وجود شيء، وتأمل كلمة "ربي" والمراد منها الذي أحسن إليّ، كما أحسن إليكم، وكل ذلك ردٌ عليهم بما وسموه به من عدم الاستناد إلي سند في ما أمرهم به ونهاهم عنه.

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤/٤١٧.

(٢) البحر المحيط ٦/١٩٨.

يقول أبو السعود: "وإيراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين، ومراعاة حسن المحاورة معهم".(١)

وقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾: هذه جملة معطوفة على الجملة السابقة جاء بها خطيب الأنبياء شعيب - عليه السلام - ليعضد به حجته على قومه، و"رزقني" فعل والفاعل مستتر، والمفعول به الضمير المتصل، و"رزقا" مفعول به، ويجوز جعله مفعولاً مطلقاً، ويكون آنذاك مبينا النوع؛ لأن "حسنا" صفة له.

وجواب الشرط - كما سبق - محذوف يدل عليه السياق، أى إن كان هذا كله حاصل بالفعل، فما تقولون فيما أدعوكم إليه، وأنهاكم عنه.

"والمراد بالرزق الحسن هنا هو نعمة النبوة، وإنما عبر شعيب - عليه السلام - عن النبوة بالرزق على وجه التشبيه مشاكله(٢) لقولهم: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾؛ لأن الأموال أرزاق."(٣)، وكل ذلك وإن كان يندرج تحت استمالتهم، والتلطف معهم، إلا أننا نلمس

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣/٢٣٣.

(٢) المشاكلة: هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا، ينظر بغية الإيضاح ٤/١٨.

(٣) التحرير والتنوير ١٣/١٤٤.

فيه تحذيرًا لهم، من عاقبة تكذيبهم له، والمعني: ماذا ينجيكم من عاقبة الكفر والتكذيب على فرض احتمال أن يكون صادقاً.

وتأمل إسناد الرزق إلي الرب سبحانه، ووصف الرزق بأنه رزقا حسنا كل ذلك فيه ما فيه من تعظيم وتفخيم هذا الرزق، ولم لا؟ وهو النبوة التي اصطفاه الله تعالي، وخصه دون قومه بها، ليكون مبلغاً عن ربه، ولكي يوصل إليهم هذا المعني جاراهم – عليه السلام – بلغتهم، وبالمهم عندهم، فعبر عن النبوة بالرزق، من باب المشاكلة.

وقال بعض المفسرين: إن شعيبا – عليه السلام – كان كثير المال، فالمراد من الرزق الحسن هو المال الذي لا يختلط به محرم، فهو رزق حسن ليس فيه رباً، ولا تطفيف ولا بخس.(١)

قوله تعالي: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾.

المعني: أنا أول الممتثلين لما آمركم به، وأول المنتهين إلي ما أنهاكم عنه، فدليل صدقي أنني لا يخالف فعلي قولي، والمرء لا يخدع نفسه، فإذا كان ما آمركم به وأنهاكم عنه سفها وغيا وضلالاً وعيا، فكيف يليق بى أن أطبقه على نفسي قبل غيري.

والمخالفة: المعاكسة والمنازعة.

---

(١) ينظر البحر المحيط ١٩٨/٦، وفتح القدير ٥١٩/٢.

فالأنبياء – عليهم السلام – أول من التزم بالشرائع السماوية، وطبقها على نفسه قبل غيره، ولذا عيب على الواعظ عدم الالتزام بما وعظ به، قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[2]، ويقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها	فإذا انتهيت منه فأنت حكيم

و"ما" في قوله: "وما أريد" نافية، و"أريد" فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، و"أن" وما دخلت عليه في تأويل مصدر تقديره "مخالفتكم"، واقع مفعول به للفعل "أريد".

يقول الطاهر بن عاشور – رحمه الله –: "وحرف "إلى" في "إلى

---

(1) سورة البقرة آية"٤٤".

(2) سورة الصف الآيات "٢، ٣".

ما أنهاكم عنه" يدل على الانتهاء، لتضمين(١) أخالفكم معني "السعي إلي شيء" ويتعلق قوله "إلى ما أنهاكم" بفعل "أخالفكم"، ويكون "أن أخالفكم" مفعول "أريد"".(٢)

قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾.

هذا قصر قلب طريقه النفي والاستثناء، ويعد أسلوب القصر بالنفي والاستثناء أكثر طرق القصر، وأقواها دلالة على التوكيد، فالنفي والاستثناء من طرق القصر الاصطلاحية، وهو عند العلماء رأس هذه الطرق المفيدة للقصر.(٣)

فقد قصر دعوته – عليه السلام – في إصلاح حال قومه، وجعل الإصلاح هدفا يسعي إليه، وفي هذا ما فيه من إعلاء لقيمة الإصلاح في المجتمعات، فالمرء معرض للفتن والأهواء والانحراف، فإذا وجد من يقوّمه ويصلحه، فقد وجد الخير كله، ومعلوم أن جميع الرسل – عليهم السلام – كان هدفهم إصلاح الفساد في المجتمع، فهم – عليهم السلام – مصلحون للقلوب، والعقول، والحياة.

---

(١) التضمين: هو أن يشرب الفعل معني غيره، فيأخذ حكمه من حيث اللزوم والتعدي. ينظر المقياس الصرفي د/ مصطفي النماس باب تعدي الفعل ولزومه – مبحث "التضمين".

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٤٤.

(٣) ينظر من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم د/ محمود عبد العظيم صفا ١١٨.

وهناك ثمة أمر مهم، وهو أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح لم يكن ملوما ولا مذموماً في عدم الاستجابة له، طالما لم يقصر في ذلك، وكان مستعيناً بالله تعالى.

وجملة ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ... ﴾ هي " بيان لجملة: "وما أريد أن أخالفكم إلي ما أنهاكم عنه"؛ لأن انتفاء إرادة المخالفة إلي ما نهاهم عنه، مجمل فيما يريد إثباته من أضداد المنفي، فبينه بأن الضد المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، والقصر هنا لإفادة التوكيد".(١)

وتأمل قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾، وما يفيده هذا التقييد من الاحتراز عن التقصير، والمرء ليس مطالباً بما فوق طاقته، يقول تعالي: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾(٢)، ويقول سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾. (٣)

يقول أبو حيان: "والظاهر أن "ما" مصدرية ظرفية أي مدة استطاعتي للإصلاح، وما دمت متمكنا منه لا آلوا فيه جهداً". (٤)

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٤٥.

(٢) سورة التغابن آية "١٦".

(٣) سورة البقرة آية "٢٨٦".

(٤) البحر المحيط ٦/١٩٩.

ثم جعل مآل الأمر ومرجعه إلي الله تعالي، فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فأرجع الفضل إلي الله تعالي، فهو سبحانه المؤيد له، والمعين في دعوته، فقد تبرأ – عليه السلام – من الحول والقوة، وأسند الأمر كله إلي ربه وربهم، ولذا فإن هذا القصر يفيد ما يفيد من التوكيد، وأن أمر قبولهم لدعوته – عليه السلام – هو توفيق من الله تعالي له، فالأمر كله موكول إليه سبحانه، ولذا فإنك تلمح في هذا تهديداً للكفار، فكأنهم إن رفضوا الرسالة فقد عرضوا أنفسهم لغضب الله تعالي وعقابه.

وتأمل قوله بعد ذلك: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل شيء، و﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه في كل أمر من الأمور، ويجوز أن يكون المعني: "وإليه أرجع في الآخرة، وفيه تذكير لهم بمردهم ومآلهم إلى ربهم سبحانه، فهو إشارة إلي البعث بعد الموت.

والجملتان: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ حالان.

"وإيثار صيغة الاستقبال على الماضي الأنسب للتقرر والتحقق، ولا يخفي ما في جوابه – عليه السلام – من مراعاة لطف المراجعة، ورفق الاستنزال، والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة".(١)

فإفادة المضارع "أنيب" هو استحضار الحديث المستقبلي كأنه ماثل الآن، وفيه ما فيه من تقرير وتحقيق لأمر البعث والنشور.

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٢٣٤.

فالتقديم في قوله "عليه توكلت وإليه أنيب" لقصد الاختصاص؛ لأن تقديم المتعلق "عليه، وإليه" أفاد قصر ذلك على الله تعالى وحده دون سواء، فقصر التوكل والإنابة والمرجع والمصير عليه سبحانه، وهو قصر الحقيقي تحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾.

المعني: لا يحملنكم معاداتي إلي تكذيبي فيحل بكم ما حل بغيركم من الأمم التي كذبت رسلها مثل قوم نوح وهود وصالح ....

و"الشقاق": بمعني المعاداة، فالشقاق: مصدر شاقه إذا عاداه، ومعروف أن قوم نوح – عليه السلام – أصابهم الغرق، وأصاب قوم هود – عليه السلام الريح العاتية، وأهلك قوم صالح – عليه السلام – بالصيحة والرجفة.

يقول أبو السعود – رحمه الله –: "وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب إصابة العذاب، لكنه في الحقيقة نهي للكفرة عن مشاقته – عليه السلام – على ألطف أسلوب وأبدعه".(١)

---

(١) إرشاد العقل السليم ٣/٢٣٥.

والفعل "جرم" يتعدي لمفعولين، والفاعل في "يصيبكم" مضمر يفسره سياق الكلام، أي "العذاب"، ويجوز أن يكون "مثل" فاعل يصيب، وهو في الأصل صفة لفاعل محذوف، أي عذاب مثل. (١)

وقوله: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ... ﴾ "لا" ناهية، و"يجرمنكم": فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو في موضع جزم بـ "لا"، والكاف: مفعول أول، و"شقاقي" فاعل، و"أن يصيبكم" في محل نصب مفعول ثان ليجرمنكم.

ويلحظ أن شعيبًا – عليه السلام – يحذرهم من عاقبة الغي والتمادي في الضلال، ويذكرهم بما حدث لأمثالهم حين كذبوا رسلهم.

وتأمل إعادة "يا قوم"، وما يدل عليه من حرصه على هدايتهم، والتلطف في حديثه معهم، فهم أعز الناس عليه، لذا فهو يخشي عليهم من العذاب الذي أصاب قوم نوح – عليه السلام – مع طول أعمارهم، وقوم هود – عليه السلام – على شدة أبدانهم، وقوم صالح – عليه السلام – رغم ترفهم وتشييدهم القصور، ونحتهم من الجبال بيوتا فارهين.

قوله تعالي: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾.

---

(١) ينظر إعراب القرآن وبيانه د/ محي الدين درويش ٤/٤١٨.

هذه جملة في موضع الحال من ضمير النصب في "أن يصيبكم"، "والمعني الحال هنا مزيد مناسبة لمضمون جملتها إذا اعتبر قرب زمانهم بالمخاطبين، كأنه حال من أحوال المخاطبين، والمراد بالبعد: بعد الزمن، والمكان، والنسب".(١)

وفي هذا ما فيه من الترهيب، والتهويل، فقد خص قوم لوط بمزيد اهتمام؛ لأن قوم شعيب كانوا قريبين منهم من حيث المكان والزمان، والنسب، وذلك للاتعاظ بما حدث لهم.

ومعروف أن صيغة "فعيل" يستوي فيها المذكر والمؤنث والمفرد والجمع.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ .... ﴾ ما: نافية حجازية تعمل عمل "ليس"، و"قومُ" اسمها، و"لوط": مضاف إليه، وقوله: "منكم" جار ومجرور متعلق ببعيد، مفرد وإن كان خبرا عن جمع، للسبب المذكور آنفًا هو أن تلك الصيغة يستوي فيها الجمع والمفرد.

قوله تعالي: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤٧/١٣.

هذا ترغيب لهم في العودة إلي الصواب، والرجوع عن الغي والضلال، فقد جمع – عليه السلام – في دعوته لهم بين الترهيب والترغيب.

و"رحيم": فعيل صيغة مبالغة من الرحمة، أي كثير الرحمة، عظيم الثواب.

و"الودود": اسم من أسماء الله الحسني، وهو من صيغ المبالغة من الود بمعني المحبة.

والمعني: أن الله تعالي يحب التوابين المتقربين إليه بالاستغفار فيرحمهم سبحانه، ويعفو عنهم.

ويلحظ أن جملة: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ .... ﴾ معطوفة على جملة ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ ﴾، وجملة: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ هي تعليل للأمر باستغفار الله تعالي، والتوبة والرجوع إليه، فهو تعليل لما يقتضيه الأمر من رجاء العفو عنهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه.

وانظر إلي قوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ حيث أمرهم باستغفار ربهم، وتأمل ما ينطوي عليه لفظ "الرب"، وما يوحي إليه من تعطف وتحنن وإرادة الخير.

و"ثم" حرف عطف، والفعل بعدها "توبوا" معطوف على "استغفروا"، و"رحيم ودود" خبر بعد خبر.

يقول البقاعي – رحمه الله – "ثم: على بابها في الترتيب، وأما التراخي فباعتبار عظم مقدار التوبة، وعلو رتبتها؛ لأن الغفران لا يحصل بالطلب إلا إن اقترن بها، هذا الشأن في كل كبيرة من أنها لا تكفر إلا بالتوبة".(١)

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾.

هذا استئناف بياني كأن سائلاً سأل، فماذا كان ردهم على ما قاله شعيب فجاء: "قالوا يا شعيب.... الآية.

وردهم هذا هو استهانة بشعيب ونصحه لهم، فهم لا يلقون لما يقوله بالاً، ولا يعرونه اهتماماً، فهم لم يعبئوا به، هذا مع إقرارنا أن شعيبا – عليه السلام – هو خطيب الأنبياء – عليهم السلام – فكلامه بليغ فصيح، فهو المفلق ذو الحجة الواضحة، والمنطق السليم، فكلامه – عليه السلام – يفهمه من هو أقل درجة في الفهم، وأدنى مقاماً في الإدراك.

---

(١) نظم الدر للبقاعي ٩/٩١.

ولم يكتفوا بذلك بل زادوا في الاستهانة به فقالوا مؤكدين كلامهم "وإنا لنراك فينا ضعيفا"، فهم قد وسموه بالضعف أي المهانة وعدم القدرة على مواجهتهم والانتصار عليهم.

و"ما" في قوله: "ما نفقه" نافية، ونفقه: فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره "نحن"، و "كثيراً" مفعول به، و"مما" صفة كثيراً، و "تقول" جملة الصلة.

وقد يكون قولهم: ﴿مَانَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ من باب الحقيقة يقول الشوكاني رحمه الله: "المعني: أنك تأتينا بما لا عهد لنا به من الأخبار بالأمور الغيبية كالبعث والنشور، ولا نفقه ذلك، أي لا نفهمه كما نفهم الأمور الحاضرة والمشاهدة، فيكون نفي الفقه على هذا حقيقة لا مجازاً. (١)

فإذا كان قصدهم لا نفهم كثيراً من قولك لأن كلامك فوق طاقة فهمنا يكون الفهم جارياً على الحقيقة، وإذا كان المراد بكلامهم الاستهانة به، والاستهزاء والسخرية فيكون الفهم هنا جاريا على التعريض به، ويكون كناية عن الاستهزاء بكلامه، والراجح هو هذا الرأى فالكلام محمول على التعريض ويكون فيه كناية.

وما أجمل ما قاله أبو السعود – رحمه الله –: "الفقه هو معرفة غرض المتكلم من كلامه، أي ما نفهم مرادك، وإنما قالوه بعد ما سمعوا

---

(١) فتح القدير ٢/٥٢٠.

من دلائل الحق المبين على أحسن وجه وأبلغه، وضاقت عليهم الحيل، وعيت بهم العلل، فلم يجدوا إلي محاورته سبيلاً سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك إلي سبيل الشقاء كما هو ديدن المفحم المحجوج يقابل البينات بالسب والإبراق والإرعاد، فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه، ولا يدرك فحواه".(١)

فلأنهم عجزوا عن مجاراة فصاحته وبلاغته عاندوه، وادعوا عدم فهمهم لكلامه.

وتأمل مناداتهم له بقولهم: "يا شعيب" وأداة النداء "يا" لمناداة البعيد، فهم يريدون أنه بعيد لا يعبؤ به ولا بكلامه، وتأمل أيضاً مناداتهم له باسمه "شعيب" جفاءً وغلظة، مع أنه – عليه السلام – يناديهم تقرباً وتلطفاً بقوله: "يا قوم" فهم يقابلون ذلك بكل كبر وتهكم وعناد، وكذلك فإنهم يقيسون القيم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة لذا قالوا ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾، وكلامهم هذا مؤكد بأكثر من مؤكد فهم واثقون مما يقولون أو هكذا يتوهمون.

ثم تابعوا استهانتهم به فقالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾.

---

(١) إرشاد العقل السليم لأبي المسعود ٣/٢٣٥.

"فهم قد احترموه لرهطه إذ كانوا كفاراً مثلهم، وقولهم "لرجمناكَ ظاهرة القتل بالحجارة، وهي من شر القِتلات، وقيل المعني: لأبعدناك ولأخرجناك من أرضنا".(١)

و"لولا" حرف امتناع لوجود، و"رهطك" مبتدأ، والخبر محذوف لظهوره والتقدير "موجود"، واللام في "لرجمناك" رابطة لجواب لولا، وجملة "رجمناك" لا محل لها من الإعراب.

ورهط الرجل: هم عشيرته الذين يساندونه ويعينونه، فهو يتقوى بهم، ويحتمي بهم، و"رهط" يطلق على العدد من ثلاثة إلى عشرة، فهم يعتدون برهطه رغم قلتهم احتراما لهم لأنهم كفار مثلهم، فقوم شعيب – عليه السلام – يهددونه بقتله شر قتلة، ويؤكدون كلامهم ثقة بأنفسهم، واستهانة بشعيب.

ثم قالوا موجهين كلامهم لشعيب ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ "ما" نافية حجازية تعمل على "ليس"، والضمير المنفصل "أنت" في محل رفع اسمها، والخبر قوله "بعزيز"، والباء فيه زائدة.

والمراد بقولهم: "بعزيز" أي كريم نود الحفاظ عليه، ويصح أن يراد بالعزيز القوي الممتنع.

---

(١) ينظر البحر المحيط ٦/٢٠١.

وهذا الأسلوب أفاد الاختصاص، فالمعني: لست أنت خاصة بعزيز علينا ولكننا نلقي بالاً واهتماماً لرهطك لأنهم أعزة علينا لمشاركتهم لنا في العقيدة.

فتقديم المسند إليه بعد النفي أفاد القصر والاختصاص، وبعض البلاغيين يجعل ذلك قاصراً على الخبر الفعلي مثل قول المتنبي:

وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب ناراً

فالمعنى: هذا السقم الحاصل في جسدي، وتلك النيران المشتعلة في فؤادي لم أفعلها أنا، بل فعلهما غيري، ومنه قوله أيضاً:

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ولكن لشعري فيك من نفسه شعر

أقول: بعض البلاغين جعل إفادة القصر والاختصاص إذا كان الخبر فعليا، وقال آخرون: هي ليست قاصرة على الخبر الفعلي بل تتعداه لغيره.

والحقيقة أن السياق له دور كبير في فهم وتحديد ما يفيده التركيب، ففي الآية الشريفة "وما أنت علينا بعزيز" أفاد الاختصاص بمعني نفي العزة عن شعيب، وإثباتها لرهطه، ولذا فقد فهم – عليه السلام – قصدهم، فقال منكراً ذلك منهم "أرهطي أعز عليكم من الله".

نعم: إن دور السياق وأثره في تحديد المقصود من التركيب هل هو اختصاص أم توكيد للمعني، دور مهم في مثل هذه الأساليب، فما يرشد إليه السياق هو المعتمد في ذلك، وما البلاغة إلا مراعاة الكلام لمقتضى الحال.

والجدير بالذكر أن هناك أساليب تقدم فيها المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي ولم يفد هذا التركيب الاختصاص، انظر إلى قوله تعالى: "لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون. بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون".(١) تجد أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أفاد الاختصاص، لأن النصر في هذا الموقف منفي عن الكفار مثبت للمؤمنين، ولكن هذا التركيب نفسه في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أفاد فقط التقوية والتوكيد، ولا يفيد الاختصاص؛ لأنه لا أحد ينظر حين مجيء الساعة.

فالسياق هو الذي يحدد ذلك، وهذا ما قاله كثير من علماء البلاغة. (٢)

يقول الزمخشري – رحمه الله –: "وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل، لا في الفعل، كأنه قيل: وما أنت

---

(١) سورة الأنبياء الآية "٣٩، ٤٠".

(٢) ينظر خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسي: ص ١٧٩.

علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا، ولذلك قال في جوابهم: أرهطي أعز عليكم من الله؟ ولو قيل: وما عززت علينا لم يصح هذا الجواب".(١)

وقد أيده في ذلك كثير من العلماء منهم أبو السعود وغيره.

فكلامهم هذا فيه تأكيد لما وصفوه به من الضعف، وتأمل ما حواه كلامهم من جدال بالباطل، وإزهاق للحق، وإبراز ما هم عليه من عقيدة فاسدة، وأن كل ما يهمهم ويعنيهم القوة المادية فقط، ولا اعتبار لدين أو عقيدة أو خلق عندهم.

وهذا عكس ما تميز به كلام شعيب - عليه السلام - من صدق في القول، وتحري الحقيقة، والبعد عن الكذب والخداع، والتزام الموضوعية، وإبراز الدليل والبرهان الساطع، والالتزام بالمنطق السليم، ولين الجانب، وسماحة القول، وعفة اللسان، لأن هدفه - عليه السلام - هو جلاء الحقيقة، والوصول إليها، وإقناع الجميع بها.

نعم: إنك تلحظ التواضع الجم، والتزام الأدب في الحوار، واجتناب الغرور والبعد عن الكبر والتعالي، وذلك ميزة من مميزات حوار شعيب - عليه السلام - مع قومه.

قوله تعالي: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾.

---

(١) الكشاف ٣/٥٢.

هذا استئناف بياني، يوضح رد سيدنا شعيب - عليه السلام - على ما قاله قومه له، وتأمل هذا الرد تجد فيه عزة وثقة في الله تعالى، وهذا واضح بين، وانظر إلي حرصه - عليه السلام - على استمال قلوب قومه، بندائه لهم "يا قوم"، رغم غلظتهم وفظاظة أسلوبهم، وتأمل هذا الاستفهام الإنكاري ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وهو توبيخ لهم، وإنكار عليهم، و"رهطي": مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة، و"أعز": خبرة، وقوله: "عليكم" و"من الله" متعلقان بـ "أعز" وما أجمل ما قاله الزمخشري - رحمه الله - يقول: "فإن قلت: فالكلام واقع فيه وفي رهطه، وأنهم الأعزة عندهم دونه، فكيف صح قوله: ﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ، قلت: تهاونهم به وهو نبي الله تهاون بالله، فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله، ألا تري إلي قوله تعالي: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾.[1]

نعم: إن الاستهانة بنبي الله تعالي، المبعوث من قبله - عز وجل - استهانة بالمرسِل - جل جلاله -، وفيه تقريع وتوبيخ شديد لهم مع إنكار ذلك عليهم، و"الرهط": هم الأقارب وعصبة شعيب ولذا أضافهم لنفسه "أرهطي"، وتأمل ما يحويه لفظ الجلالة "الله" من عزة وجبروت، فهو سبحانه محيط بكل شيء، عالم بما يقولون، قادر عليهم، فهو الجبار سبحانه.

---

[1] الكشاف للزمخشري ٣/٥٢.

وقال السكاكى: معناه من نبي الله، فهو على حذف المضاف. (١)

يقول الشوكاني – رحمه الله –: "فقد تضمن كلامهم أن رهطه أعز عليهم من الله، فاستنكر شعيب عليهم ذلك، وتعجب منه، وألزمهم ما لا مخلص لهم عنه، ولا مخرج لهم منه بصورة الاستفهام، فى هذا من قوة المحاجة ، ووضوح المجادلة وإلقام الخصم الحجر ما لا يخفي".(٢)

و"أعز" أفعل تفضيل(٣)،أفاد هنا مجاراته – عليه السلام – لهم في وصفهم رهطه بالعزة، وفي الكلام تعريض بهم. (٤)

ومعروف أن الاستفهام الإنكاري يكون في مقام ينكر المتكلم فيه حصول المسئول عنه، والمنكَر هو ما يلي الهمزة، وهو في الآية الشريفة إنكار لأن يكون رهطه اعز عند قومه من الله تعالي، وفي هذا ما فيه من التوبيخ، وذلك لأن المقدم هو محط الإنكار والاهتمام.

---

(١) ينظر مفتاح العلوم للسكاكي، وينظر بغية الإيضاح ١/١٣٩.

(٢) فتح القدير ٢/٥٢٠.

(٣) أفعل التفضيل يفيد أن شيئين اشتركا في صفة وزاد أحدهما على الآخر.

(٤) التعريض في اللغة خلاف التصريح، وقد عرفه الزمخشري بقوله: "هو أن تذكر شيئا تدل به على شيء لم تذكره". ينظر الكشاف ١/٢١٥.

وخلاصة القول أن قوم شعيب كان قصدهم أن يقولوا لشعيب – عليه السلام –: يا شعيب رهطك هم الأعزة عندنا لا أنت، لكونهم من أهل ديننا.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾.

الواو واو الحال، أي والحال أنكم اتخذتموه وراءكم، والفعل "اتخذ" يتعدى لمفعولين أولهما الهاء والثاني ظهرياً.

والضمير في "اتخذتموه" راجع إلي الله تعالي، والتعبير في قوله: ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ يفيد عدم المبالاة والاستهانة "وقيل: المعني واتخذتم أمر الله الذي أمرني بإبلاغه إليكم، وهو ما جئتكم به وراء ظهوركم، يقال: جعلت أمره بظهر: إذا قصرت فيه، و"ظهريا": منسوب إلي الظهر، والكسر لتغيير النسب".(١)

فلكونهم خالفوا أمر الله، وعصوا نبيه شعيبًا – عليه السلام – كان هذا الإعراض استهزاء واستهانة به.

وانظر ما أفاده ظرف المكان "وراء"، وما يمكن في التعبير من نفور وسخرية وعدم مبالاة، فكأنه شيء متروك وضع خلف الظهر،

---

(١) فتح القدير ٢/٥٢١.

فقوله: "واتخذتموه وراءكم ظهريا" هي صورة حسية كناية(١) عن الترك والإعراض، وفي ذلك تشنيع عليهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

هذا الكلام المؤكد فيه إنذار ووعيد لهؤلاء الكفار المعاندين، فالله سبحانه محيط بكم عالم بأعمالكم، فلا يخفى عليه شيء فيها.

يقول البقاعي – رحمه الله –: "ولما كان معنى الكلام لأجل الإنكار: إنكم عكستم في الفعل، فلم تعرفوا الحق لأهله، إذ كان ينبغي لكم أن لا تنسوا الله، بل تراقبوه في كل أموركم، حسن تعليل هذا المفهوم بقوله: "إن ربي" أي المحسن إلي، ولما كان المراد المبالغة في إحاطة علمه تعالى بأعمالهم، قدّم قوله: "بما تعملون محيط" من جليل وحقير"(٢) فالآية قد ختمت بهذا التهديد القوي، وتوكيد الكلام بإن، و"ما" اسم موصول يفيد الشمول والعموم، وجملة "تعملون" صلة، و"محيط" خبر إن، وهو فعيل من صيغ المبالغة، يفيد الإحاطة والتمكن، وتأمل إضافة الرب إلي ضمير المتكلم، وفي هذا ما فيه من إظهار العزة بالله تعالى، والثقة الكاملة بنصرة الله سبحانه، وعبر بقوله: "تعملون" ولم يقل "تفعلون" لأن

---

(١) الكناية هنا عن صفة، وهي أكثر أنواع الكتابة شيوعاً، والكناية: لفظ أريد به لازم معناه، مع جواز إرادة المعني الحقيقي، ولها أهمية في علم البلاغة. ينظر مختصر تلخيص المفتاح ص١٦٦، ونظرات في البيان د/ محمد عبد الرحمن الكردي: ٢٧٢.

(٢) نظم الدرر ٩/٣٦٤.

العمل يشمل القول والفعل معاً، وفي تقديم المتعلق "بما تعملون" اهتمام بأمر المقدم، وأنه المقصود بالعناية والاهتمام.

قوله تعالي: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾.

هذا الكلام بمثابة تهديد من شعيب – عليه السلام – لقومه، فالأمر "اعملوا" خرج من معناه الحقيق إلي معني مجازي قصد به التهديد والوعيد، فالمراد به الزجر، ومنه قوله تعالي: "اعملوا ما شئتم"(١) فكأن سيدنا شعيبًا – عليه السلام – لما يئس منهم شرع في تهديد هم فقال ما قال.

و"مكانتكم": أي حالكم الذي تتمكنون به من العمل يقول الزمخشري – رحمه الله –: "لا تخلوا المكانة من أن تكون بمعني المكان يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامه، أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين، والمعني: اعملوا قادرين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك".(٢)

ثم يأتي قوله: "إني عامل"، وقد فصل هذه الجملة عن قوله "اعملوا" لكمال الانقطاع بلا إيهام، وهو من مواضع الفصل.

---

(١) سورة فصلت آية "٤٠".

(٢) الكشاف ٣/٥٣.

وقوله: اعملوا": فعل وفاعل و"على مكانتكم" حال، أي حال كونكم موصوفين بالمكانة العالية، وقوله: "إني عامل": إن واسمها وخبرها، وتأمل التوكيد في "إني عامل" وهو يدل على الإصرار والعزيمة القوية، والثقة التامة بالله تعالي، وعدم خوف شعيب – عليه السلام – من تهديد قومه له.

قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾. هذا القول ترقي في التهديد والوعيد، فهو يقول لهم: عما قريب سوف تعلمون عاقبة ما أنتم عليه من غي وتكذيب، و"يخزيه" من الخزي وهو العار والفضيحة وسوء الخاتمة وشدة العقاب.

وقوله: "ومن هو كاذب": معطوف على "من يأتيه"، وفيه تعريض بأنهم كاذبون في ما قالوه وما هددوه به، وهو بجانب ذلك فيه ما فيه من دلالة على ثقة شعيب – عليه السلام – بنفسه وعقيدته، كذلك أيضاً تلمس فيه أدب الحوار لخطيب الأنبياء، فهو – عليه السلام – يعلم أنهم كاذبون، ومع ذلك لم يجعل كلامه اتهاما مباشراً لهم، وهذا من أدب الحوار.

و"سوف" حرف استقبال، و"تعلمون": فعل مضارع مرفوع بثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، و"من" اسم موصول مفعول به، وجعلها بعضهم استفهامية، وعلى جعل "من" استفهامية فجملة "يأتيه" صلة، و"الهاء" مفعول، و"عذاب": فاعل، وجملة: "يخزيه" صفة لعذاب.

يقول الزمخشري – رحمه الله –: "يجوز أن تكون "من" استفهامية معلقة لفعل العلم عن عمله فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا هو كاذب، وأن تكون موصولة قد عمل فيها، كأنه قيل: سوف تعلمون الشقي الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب".(١)

ويلحظ عدم دخول الفاء في "سَوف تعلمون" وهو حرف وصل، فدخولها للوصل الظاهر، وحذفها وصل خفي للاستئناف البياني كما هو في الآية الشريفة. ويلحظ أيضاً الاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية في قوله: "يأتيه .... كاذب"، والعلة في ذلك كما يقول أبو السعود: "أن كذب الكاذب ليس بمرتقب كإتيان العذاب، بل إنما المرتقب ظهور الكذب السابق المستمر".(٢)

وتأمل قوله: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ تجد أن القياس كان يقتضي قوله: "من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق" حتى ينصرف الأول إليهم والثاني إليه، ولكنه عدل عن هذا السياق لأنهم كانوا يعدونه كاذبا، فجاء كلامه مجاراة لهم في دعواهم الكاذبة تجهيلاً وامتهانا لهم.

قوله: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُم رَقِيبٌ﴾.

---

(١) الكشاف ٣/٥٣.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٢٣٧.

المعني: انتظروا إني معكم منتظر لما يحكم الله تعالي به بيني وبينكم. و"ارتقبوا": فعل وفاعل وقوله: "إني" إن واسمها، و"معكم": ظرف متعلق بقوله: "رقيب"، و"رقيب": خبر إن.

والرقيب: بمعني المراقب أي المنتظر، وتأمل دلالة الظرف "معكم" وهو لإفادة تمام الثقة لما تكون عليه العاقبة من حسن وخير له، وسوء وفجيعة لهم، ومعروف أن "رقيب": فعيل، صيغة مبالغة، فلم يقل "مرتقب" وإنما لتشوقه للنهاية وثقته في ربه قال ما قال،'وتأمل التوكيد في قوله: "إني معكم رقيب" والتوكيد هنا في موضعه؛ لأنهم يكذبونه وينكرون ما يقول.

قوله تعالي: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

"لما": ظرف زمان بمعني "حين"، متضمن معني الشرط، مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه متعلق بالجواب. (١)

(١) وذلك لأنها دخلت على فعل ماضي، وتقتضي جوابا يكون إما فعلا ماضيا كما هو هنا، وقد يكون جوابها جملة اسمية مقترنة بـ "إذا" الفجائية مثل قوله تعالى: "فلما جاء هم بآياتنا إذا هم منها يضحكون" في سورة الزخرف آية "٤٧".

وهذه الجملة معطوفة بالواو، كأنه قيل: ولما لم يتعظوا واستمروا في ضلالهم، ولم ينتفعوا بالوعيد فاستمروا في غيِّهم إلى أن جاءهم أمرنا، وتأمل قوله: "أمرنا"، "نجينا" "برحمة منا" تجد فيه ما فيه من التعظيم والتفخيم. والمراد بقوله: "أمرنا": أي عذابنا.

والباء في "برحمة منا" للسببية أي بسبب رحمة منا لهم بسبب إيمانهم أو هدايتهم للإيمان.

وتأمل الإسناد في قوله: "جاء أمرنا"، فالكلام استعارة تبعية في الفعل "جاء"، ويجوز جعلها استعارة مكنية على تشبيه الأمر بإنسان يتأتى له أن يجئ ويذهب.

قوله: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

لما اشتد إيذاء قوم شعيب - عليه السلام - له ولأتباعه، دعا عليهم، فنجا الله تعالى شعيبا ومن معه، وأهلك هؤلاء المعاندين، فأخذتهم الصيحة، فصاروا جثثًا هامدة.

يقول المفسرون: أصابهم أولاً حر شديد لم يتحملوه، فخرجوا من ديارهم واستظلوا بغيمة فإذا هي صواعق تحرقهم، وتزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، ثم أهلكوا بالصيحة.

والمراد بالصيحة: هي صيحة جبريل - عليه السلام - فيهم حتى خرجت أرواحهم من أجسامهم.

يقول الشوكاني: "في سورة الأعراف: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾، وكذا في سورة العنكبوت، والرجفة: الزلزلة، وأنها تكون تابعة للصيحة".(١)

و"الصيحة": فاعل مؤخر، وتقدم المفعول وهو "الذين"؛ لأنه المهم، وذكره والعناية به أولي، فتقديمه للعناية والاهتمام.

نعم: فإنه لما ذكر نجاة المؤمنين، أتبعه هلاك الكافرين، وهي عادة القرآن العظيم بذكر الشيء وضده.

وتأمل التعبير بالاسم الموصول "الذين ظلموا"، وذلك لتسجيل الظلم عليهم، يقول أبو السعود رحمه الله: "عدل إليه عن الضمير تسجيلاً عليهم بالظلم، وإشعاراً بأن ما أخذهم إنما أخذهم بسبب ظلمهم الذي فصل فيما سبق فنونه".(٢)

ويلحظ أنه لما كان الحديث عن قوم شعيب قال سبحانه "وأخذت" بتاء التأنيث، وعندما حكي عن ثمود قال سبحانه: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ بدون تاء التأنيث، وقد علل البقاعي ذلك بقوله:

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢/٥٢١.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٢٣٧.

"وكأنها كانت دون صيحة ثمود، لأنهم كانوا أضعف منهم، فلذلك أبرز علامة التأنيث في هذه دون تلك".(١)

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

قوله: "فأصبحوا" أصبح واسمها، و"جاثمين" خبرها منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم، و"في ديارهم" متعلق بجاثمين.

و"جاثمين" أي ميتين لا حراك لهم جثثًا ملقاة منزوعة الروح والحركة، لا قيمة لهم بعد أن كانوا جبارين عتاة مفسدين في الأرض، متكبرين مستهزئين بنبيهم شعيب عليه السلام.

فقوله: "جاثمين" من قولهم: جثم الشيء: إذا ألزم مكانه، وقيل: هو أن يقع على صدره، وفي الآية الشريفة المعني: أجساداً ملقاة على الأرض، أي باركين. (٢)

وتأمل كيف قدم الحديث عن نجاة سيدنا شعيب ومن معه عن الحديث عن هلاك المكذبين، وذلك اهتماماً بشأنها وإيذانا بسبق الرحمة على العذاب، فرحمة الله تعالي وسعت كل شيء، وعذابه خاص بالمعاندين لا يتعداهم.

---

(١) نظم الدرر ٣٦٧/٩.

(٢) ينظر لسان العرب ماد "جثم".

وتأمل كيف عطف جملة "فأصبحوا" على ما قبلها بالفاء إيذانا بالفورية والتعجيل، فكأن الصيحة فور وقوعها تسبب عنها ما ذكر من النتيجة الحتمية والنهاية المخزية لهؤلاء.

قوله تعالي: "كأن لم يغنوا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود". "كأن": حرف توكيد ونصب، وهي المخففة من الثقيلة، من أخوات "إن" وتفيد التشبيه، وهي أقوي وأبلغ من الكاف، فهي تستعمل حيث يقوي الشبه.

وقد ذكر البلاغيون أنه لا فرق في استعمال "كأن" مشددة النون أو مخففة، فهي في الحالتين للتشبيه.

و"كأن" في أصل وضعها مركبة من الكاف و"إن" التي فتحت همزتها بعد دخول الكاف عليها، فحدث لها خصوصية في معني التشبيه بها نتيجة أن الشيئين إذا ركبا وصارا شيئا واحداً حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمزجا. (١)

"وقد ذكر العلامة السبكي أن المشهور هو كأن للتشبيه على الإطلاق، خلافا لبعض البلاغين حيث قالوا: إنها تكون للتشبيه إن كان خبرها اسما جامداً، أما إن كان اسما مشتقاً أو فعلاً فهي للشك بمنزلة ظننت وتوهمت".(٢)

---

(١) ينظر سر صناعة الإعراب لابن جني ١/٣٠٥.

(٢) عروس الأفراح ٣/٣٩٢، وينظر المطول ص ٨٠.

وخلاصة الأمر أن "كأن" في الآية الشريفة حرف تشبيه، يفيد التوكيد والتثبيت، وهي من أخوات "إن"، والتشبيه بها أقوى وأبلغ من الكاف؛ لأنها مركبة من الكاف وأن التي تفيد التوكيد، فالمعنى: أن أمر هؤلاء قد انتهى، وأصبحوا كأن لم يكونوا.

فقد أصبحوا جاثمين، كأنهم لم يقيموا في ديارهم، ويتمتعوا بغناهم، الذي أفضي بهم إلي البطر وكفران النعمة فحل بهم ما حل.

واسم "كأن" محذوف، وجملة "لم يغنوا" خبرها.

وهذا يعد ختما لهذه المحاورة، وذكرا للعبرة، ويلحظ إبراز الهدف منها، مبينا انتصار الحق على الباطل، وهذه سنة الله تعالي في الكون، فمهما علا الباطل، وارتفع شأنه، فلا محالة أنه سرعان ما ينقضي ويفني.

قوله تعالي: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾.

البعد: ضد القرب، والمراد به الهلاك، وقال الشوكاني: هي هنا بمعني اللعنة. (١)

(١) فتح القدير ٢/٥٢١.

و"ألا": حرف بينه، وهي تفيد هنا التوبيخ والإنكار، و"بعدا": مفعول مطلق لفعل محذوف، و"لمدين": جار ومجرور متعلقان بمحذوف، و"كما": نعت لبعد، و"ما" مصدرية، أي: كبعد ثمود.(١)

يقول أبو حيان الأندلسي – رحمه الله –: " بعداً لفلان دعاء عليه، ولا يدعي به إلا على مبغَض، كقولك: سحقاً للكافرين، وقال أهل البيان: لم يرد في القرآن استطراد(٢) إلا هذا الموضع".(٣)

وخص "ثمود" بالذكر هنا؛ لأن هلاكهم كان مشابها لهلاك "مدين"، ولكن ثموداً كانوا أشد قوة ومنعة من أهل مدين.

وهكذا يتضح من تلك المحاورة أن الرسل الكرام – عليهم السلام – ومنهم خطيب الأنبياء – شعيبا عليه السلام – قد بنوا محاوراتهم مع قومهم على المنطق السليم، والأدب الرفيع، والحجة الباهرة، والصبر الجميل والصراحة في القول، وحب الخير للمخاطبين، والحرص على إبلاغ رسالة الله تعالي على أكمل وجه مهما كلفهم ذلك من عناء.

وتميز حوار شعيب – عليه السلام – بالصبر على إساءة قومه له، واستهزائهم به ، وتطاولهم عليه، واستخفافهم بكلامه، حيث وصفوه

---

(١) ينظر إعراب القرآن وبيانه ٤/٤٢٠.

(٢) الاستطراد: هو الانتقال من معني إلي معني آخر متصل به، لم يقصد بذكر الأول التوصل إلي ذكر الثاني. بغية الإيضاح ٤/٢٠.

(٣) البحر المحيط ٦/٢٠٢.

بأقبح الصفات، وأسوأ النعوت، ولذلك استحقوا النهاية التي حددها الله تعالى لهم.

وبعد: فإن أسلوب الحوار في القرآن الكريم حافل بألوان البيان المختلفة من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وهذا ما حوته تلك المحاورة لنبي الله تعالى سيدنا شعيب - عليه السلام - مع قومه، فقد حوت أنواعاً عديدة من فنون البلاغة، جاءت في صورة تلائم الموضوع، وتلحظ فيها الوضوح والرقي، ولذلك اتخذ القرآن الكريم أسلوب الحوار أداة مفضلة في الدعوة، كما حوت تلك المحاورة كثيراً من المعاني والقيم الأخلاقية والأفكار السوية التي بها رقي المجتمعات وتقدمها وأظهرت شرف وصدق وعزيمة نبي الله شعيب - عليه السلام - وتصميمية على نشر تلك الفضائل، واتخذ - عليه السلام - الإصلاح منهجا له، وطريقا في ودحض الباطل وإزهاقه.

ويلحظ في القرآن الكريم أن الحوار يكون فيه تمهيد للمحاورة وحسن الربط بين أجزاء الحوار، وحسن التعليل، وتختم المحاورة بإظهار العظة والعبرة في نهايتها كما هو الحال هنا.

نعم: "إن الحوار الذي يقوم على الحقائق الثابتة، والمعلومات الصادقة والأخبار الصحيحة، يباركه الله تعالي، ويثبت أصحابه، وأما الحوار الذي يبني علي الإشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة، وسوء الظن المتعمد فإن نتيجته الخيبة والخسران"(١)

ويلحظ في تلك المحاورة أنها اشتملت علي كثير من الفنون البلاغية، منها "التكرار" تأمل قوله: "ولا تنقصوا المكيال والميزان"،

---

(١) مختارات من أدب الحوار في الإسلام ص ٤٦ د/ سيد طنطاوي .

وقوله: "ولا تبخسوا الناس أشياءهم" فالمعني واحد، ولما كان قومه مصرين علي هذا القبح، احتيج في المنع منه إلي المبالغة في التأكيد، فإن التكرار يفيد شدة الاهتمام بالشيء.

كما يلحظ الاستئناف البياني في تلك المحاورة حيث جاء في أبهي صورة وأوضح بيان، وتأمل قوله تعالي: "ويا قوم اعملوا علي مكانتكم إني عامل سوف تعلمون" حيث حذفت الفاء التي يتطلبها السياق، لتدل علي أنها سؤالاً مقدراً، وهو فماذا يكون بعد ذلك، وفيه ما فيه من تهويل؛ لأن قوله: "سوف تعلمون" ينطوي علي ما لا يدرك كنهه من التهديد والوعيد؛ وقد سبق ذكر رأي الزمخشري في ذلك.

ويلحظ أيضاً "التعريض"(١) وذلك في قوله: "من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب" حيث ذكر إحدى العاقبتين دون ذكر العاقبة الثانية، وفيه تعويض أبلغ من التصريح.

وكذلك تجد التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ و﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ فقد أفاد التشبيه الأول إظهار هلاك أهل مدين، وما آل إليه حالهم فكأن القوم ما كانوا، وأفاد التشبيه الثاني أن هلاك أهل مدين

---

(١) التعريض هو : المعني الحاصل عند الفظ ، ويفهم من السياق وقرائن الأحوال ، وهو إمالة الكلام الي غرض يدل علي الغرض المقصود . وقد عرفه ابن الأثير بقوله : التعريض هو الفظ الدال علي الشئ عن طريق المفهوم لا بالموضع الحقيقي ولا المجازي .ينظر المثل السائر ص ٢٥٠

وما أصابهم مشابه لهلاك ثمود، فكلاهما أهلك بالصيحة، لأن كليهما استحبوا العمي علي الهدي، فكانت نهايتهم الخزي والدمار والفناء.

وتجد في المحاورة أسلوب التوكيد في كثير منها سواء بالأدوات مثل" إن" أو بالتكرار أو بالتقديم، أو النفي والاستثناء.

وتجد أيضاً الاستفهام في قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ ...﴾

والمراد به السخرية والاستهزاء، وتجد أيضاً الاستعارة التهكمية في ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

وتجد كذلك صيغ المبالغة التي جاءت في موضعها وسياقها، فكان لها الأثر الجم في وضوح المعني، وقوة الدلالة.

كل هذا وغيره تلمسه في تلك المحاورة القرآنية، التي تدل علي ما تمتع به خطيب الأنباء من فصاحة في القول، وبلاغة في الأسلوب وقوة في المعني ووضوح في الدلالة، ورقيٍّ في القصد، وشرف في الغاية، الأمر جعل من هذه المحاورة نموذجاً راقياً بليغاً يجب أن يحتذي به.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل القرآن العظيم، وجعله نـــوراً وهـــدي ورحمة، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد صـــلي الله عليه وسلم وعلي آله وصحبه أجمعين، وعلي جميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وبعد :-

فهذا بحث يتعلق بحوار قرآني، بين نبي الله شعيب - عليه السلام - وقومه، وتعد نموذجاً من الحوارات القرآنية المتنوعة، وتلك الحوارات هي جزء لا يتجزأ من الإعجاز القرآني، وتعد تلك الحوارات من أهم مـــا اشتمل عليه الكتاب العزيز.

والمتأمل لتلك المحاورة - محل تلك الدراسة - يجدها قد تميـــزت بأسلوب محكم مترابط متجانس، وجدنا فيها قوة في الألفاظ، وإحكامًا في السبك، وبراعة في النطق، وسموا في الغاية، وجمالاً وبهاءً وصل بهـــا إلي حد الإعجاز.

وقد رسمت تلك المحاورة الملامح الشخصية للمتحاورين، فســـيدنا شعيب - عليه السلام - تلمس من تلك المحاورة مميزاتـــه مـــن قـــوة الإرادة والعزيمة، والثقة الكاملة بربه ورسالته، والصبر والتحمـــل فـــي سبيل تحقيق الغاية الشريفة من تلك المحاورة، وهي "الإصلاح"، ثم تجـــد التواضع الجم، ولين القول، والتلطف في الخطاب، ومحاولـــة اســـتمالة قومه، وإظهار حرصه علي هدايتهم، هذا بجانب بلاغة القول، وفصـــاحة اللسان، وحسن المنطق، وبهاء اللفظ.

وعلي الجانب الآخر تجد البلادة والغباء من صفات قومـــه، حتـــى إنهم لا يفقهون ما يقول، ولا يجدون حرجا في الاعتراف بهـــذا الجهـــل

وعدم الفهم، ثم تجد الكبر والتعالي من صفاتهم التي أظهرتها تلك المحاورة بصورة واضحة، وتلمس أيضاً في كلامهم الجدال بالباطل ليدحضوا به الحق، وعدم العظة بمن سبقهم من الأمم القريبة منهم، والمماثلة لهم في الأخلاق السيئة، والعادات القبيحة.

ثم إنهم لم يحاورا شعيبا – عليه السلام – في محاورته، ولم يبادلوه الحجة بالحجة، وإنما ساقوا كلامهم مساق السخرية والاستهزاء، والتعرض لشخص شعيب – عليه السلام – وهذا من سمات المحاور الضعيف، الذي لا يمتلك دليلاً ولا حجة ولا برهاناً.

وقد تأملت ما حوته تلك المحاورة، وما اشتملت عليه من لمحات بلاغية، تشبيها كان أو استعارة أو حقيقة أو مجازا، فجاءت الآيات القرآنية في أسلوب فخم، وتعبير راق متعال، فيه الخطاب تارة، والتهكم والسخرية والتعريض تارة أخري، فقد تنقل بنا الأسلوب من بلاغة إلي بلاغة، مراعيا في ذلك السياق، ومقتضي الحال، فجاءت الآيات في أرقي بلاغة، وأفصح بيان.

ومن أهم نتائج هذا البحث:

١- الترابط والتجانس الواضح في تلك الآيات الشريفة، وتنوع الأسلوب القرآني في تلك المحاورة من حقيقة ومجاز، واستعارة وكناية، وتعريض وتوكيد، وكلها جاءت في أبهي صورة، وأوضح بيان.

٢- أظهرت الآيات الشريفة سمات المتحاورين، ورسمت صورة واضحة لهم.

٣- ركزت الآيات الشريفة علي أنواع من النصائح والإرشادات التي تنفع الإنسان في دنياه وأخراه، وأخذ العظة والعبرة، وجمعت بين الترغيب والترهيب، وكل ذلك وفقا للسياق ومقتضي الحال.

٤- ألقي هذا البحث مزيداً من الضوء علي الحوارات القرآنية، مظهراً أهميتها، والأغراض الجليلة المتعلقة بها.

٥- أن من قام بما يقدر من الإصلاح، ولم يقصر، لم يكن ملوما ولا مذموماً في عدم الاستجابة له.

٦- أن نقص المكيال والميزان من كبائر الذنوب التي تعرض لعقوبة الله تعالي.

وغير ذلك مما حوته تلك الآيات الشريفة، مما هو مثبوت في ثنايا البحث.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وعلما ينتفع به، وأن يكتب له القبول إنه سبحانه سميع الدعاء.

والحمد لله أولاً وأخيراً ودائماً

فهرس
المصادر والمراجع

١- أدب الحوار في الإسلام د/ محمد سيد طنطاوي – ط/ نهضة مصر ١٤١٩هـ، ١٩٨٨م.

٢- إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم- للإمام أبي السعود محمد بن محمد العمادي – ط/ درا إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م .

٣- أسلوب الحوار في القرآن الكريم د/ محمد لطفي حويل – رسالة دكتوراه ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ .

٤- إعراب القرآن وبيانه – أ/ محي الدين الدرويش – ط/ دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية – الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م .

٥- البحر المحيط في التفسير – لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي – تحقيق الشيخ علي محمد معوض – ط/ دار الكتب العلمية بيروت .

٦- بغية الإيضاح لتخليص المفتاح في علوم البلاغة- الشيخ عبد المتعال الصعيدي- ط/ دار السعادة بالقاهرة ٢٠٠٦م، رقم الإيداع ٢٠٠٥/١٧٣٥١م .

٧- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د/محمد محمد أبو موسي – الناشر / مكتبة وهبه – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

٨- التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - ط/ الدار التونسية للنشر .

٩- الحوار والجدل في القرآن الكريم د/ خلف الحسيني - ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

١٠- خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسي - الناشر / مكتبة وهبه - الطبعة الخامسة ١٤٢١هـ ، ٢٠٠٠م - رقم الإيداع ١٩٩٦/٧٩٩٤م.

١١- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - تعليق الشيخ / محمود محمد شاكر - ط/ المدني بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م. رقم الإيداع ٨٤/٢١٧٩

١٢- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح - بهاء الدين السبكي - ط/ المطبعة الأميرية بالقاهرة - ١٣١٧هـ.

١٣- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - للشيخ محمد ابن علي بن محمد الشوكاني - ط/ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٨م .

١٤- في ظلال القرآن - للشيخ سيد قطب - ط/ دار الشروق.

١٥- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام جار الله الزمخشري، تحقيق وتعليق محمد مرسي عامر – ط/ دار المصحف بالقاهرة.

١٦- لسان العرب لابن منظور ط/ درا المعارف بالقاهرة.

١٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الأثير – ط/ المطبعة البهية المصرية ١٣١٢هـ.

١٨- المطول في شرح تلخيص المفتاح / لسعد الدين مسعود التفتازاني – الناشر / المكتبة الأزهرية للتراث ١٣٣٠هـ.

١٩- مفتاح العلوم – للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي ، ط/ مطبعة الحلبي بمصر – الطبعة الثانية ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٢٠- المقياس الصرفي د/ مصطفي النماس – ط/ الكتاب الجامعي بمصر – الطبعة الأولي ١٩٨٨م.

٢١- من أسرار التوكيد في نظم القرآن الكريم – د/ محمود عبد العظيم صفا – ط/ دار الكتاب الجامعي بمصر – ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م – رقم الإيداع ١٩٩٤/٢٩٠٠م.

٢٢- نظرات في البيان د/ محمد عبد الرحمن الكردي – مطبعة السعادة بمصر ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

٢٣- نظم الدر في تناسق الآيات والسور - للشيخ برهان الدين أبـــي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي - ط/ درا الكتاب الإسلامي بالقاهرة - الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ١٩٩٢ م.